١

الرواية

صفحة بيضاء
رقم 14

أحمد رفيق عوض

بطاقة

الروائي الفلسطيني أحمد رفيق عوض ولد في العاشر من آذار سنة ١٩٦٠ في بلدة يعبد، تلك التي استشهد في أحراجها الشيخ عز الدين القسام، ويعتبر واحداً من أهم أصحاب التجارب الروائية الفلسطينية الجديدة. . أصدر أكثر من خمسة عشر عملاً أدبياً و صحفياً و سياسياً، و هو يعمل محاضراً متفرغاً في دائرة الإعلام و التلفزة بجامعة القدس، وله مشاركة فاعلة في الحركة الثقافية الفلسطينية و العربية. وحصل على العديد من الجوائز العربية وشهادات التقدير.

أهم أعماله الروائية: العذراء والقرية - قدرون - مقامات العشاق والتجار - آخر القرن - القرمطي - عكا والملوك - بلاد البحر.

*** لفت نظري بداية، تعريفك لنفسك أثناء إحدى الحوارات معك بأنك " إنسان خائف.. جبان.. صاحب هواجس كثيرة.. لم يحقق شيئاً بعد.. ولم يعمل ما يجب عمله حتى الآن"..؟**

نعم، أنا صاحب هواجس كثيرة، وتنتابني كثير من المخاوف والمحاذير، كم رغبت أن أكون أكثر جرأة وأكثر حسماً. قد يكون هذا الخوف سبباً رئيسياً في عدم جرأتي في الكتابة أيضا. ما أفكر به أكثر جرأة مما اكتب. وكلما تقدمت في العمر، كلما زاد خوفي.

*** يبدو أن طفولتك لعبت دورا كبيرا في إبداعك اللاحق.. هل يمكن الحديث عن هذا الأثر..؟**

طفولتي كانت قاسية جداً، فقر وتنقل وعمل شاق، ومدارس مختلفة وبيوت قديمة وآيلة للسقوط، المطر والفقر والمرض وقلة النقود والملابس الرثة كانت مشاكلي الرئيسة، منحني الله أسرة آمنت ني ودعمتني، ولكن الفقر هو من أسوأ أحوال الدنيا.

*** بالتالي كم تحمل رواياتك من السيرة الذاتية، وخاصة الأربعة الأولى منها..؟**

سيرتي الذاتية منثورة بشكل متقطع، ولكنه قليل في رواياتي. لا أعتبر أنني كتبت عن سيرتي الذاتية إطلاقاً، ولكن مشاهداتي وتجاربي الشخصية لعبت دوراً في رواياتي الأولى وخاصة "العذراء والقرية".

بالمناسبة، سيرتي الذاتية فيها كثير من الانعطافات والمفاجآت والأسرار أيضا. وكم أرغب يوماً أن اكتبها كما هي. رغم أن هذا الأسلوب ليس أسلوبا عربياً إسلاميا.

*** بناء على إجابتك.. هل يمكن الحديث عن مشروع روائي واضح الملامح للروائي أحمد رفيق عوض.. وكيف كان تطوره..؟**

نعم، أدعّي أن لي مشروعي الروائي الخاص بي. أنا لست ذاتياً ولا تهويمياً ولا صاحب تأوهات. أنا منشغل بقضية أو بقضايا كبرى (أصبحت الآن تثير السخرية في خضم تيارات التحديث التي لا اعرف معناها بالضبط). أنا منشغل بالتاريخ وعلاقة المنطقة العربية بالغرب الامبريالي، منشغل بالدين وأسراره. ادعي هنا أنني أميل إلى التنظير الأمر الذي يؤثر على جماليات ما أكتب.

*** بالعودة إلى رواية "العذراء والقرية "، اعتبر بعض النقاد إنها تؤرخ بداياتك الإبداعية الفعلية.. رغم انك نشرت قبلها كثيرا من القصص الملفتة..؟**

رواية العذراء والقرية طبعت حتى الآن أربع مرات، في القدس والقاهرة ودمشق، وقد كتبتها وعمري ٢٦ سنة، وما تزال تثير الأسئلة وأنا فخور بها، ويمكن اعتبارها إنها أول أعمالي الروائية المنشورة، فقد كتبت عدداً من الروايات التي لم تنشر أبداً ولا أفكر بنشرها أيضاً. لقد مزقت كثيراً قبل أنْ أنشر.

*** يلاحظ التركيز في أعمالك الأولى على الربط بين السياسي والاجتماعي والثقافي، والذي تجلى في رواية " قدرون"، من خلال تناولك لقضية العمال الفلسطينيين في " إسرائيل"..؟**

هذا صحيح، شخصياتي الروائية هي شخصيات متورطة إلى آذينها بواقعها السياسي والاجتماعي. رواياتي هي روايات مكان وزمان، وشخصياتي الروائية هي متصلة بتاريخها وخلفياتها. أنا لا أتصور نفسي أكتب في الفراغ أو عن الفراغ.

*** استوقفني أن يعتبر بعضهم أن مشاهد الإعدام في رواية " قدرون " للحفيد وزميله هي أبواب المستقبل، مستقبل فلسطين وغيرها..؟**

نهاية رواية "قدرون" تنتهي بقتل العميل. هذه الرواية وما تلاها من روايات فتحت أمامي طريقاً لم أستطع أن أغلقه حتى ولو أردت، لقد توحش المحتل وتوحش الغرب، وصارت بلادي وإقليمي العربي كله ساحة يلعب فيها المستعمر الغولف. الأصولية والتعصب والإرهاب هي بضاعة الغرب التي ارتدت وردت إليه.

*** بالتالي إلى أي مدى يستطيع الكاتب أن يكون حيادياً في تسيير شخصيات روايته..؟**

هناك من يتهمني بأنني أسجن شخصياتي في قالب فكري ووجداني، وأنني لا أسمح لهم بالطيران الحر، قد يكون ذلك صحيحاً بشكل جزئي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هناك من يكتب عني أن شخصياتي بشكل عام تتحرك بعيداً عني. ولكن، ورغم ذلك، أنا اعتقد تماماً أنَّ الفن - على اختلافه- هو عمل فيه قصد وتعّمل. النص هو امتداد للناصّ، يتكامل معه وبه، وحرية المبدع بقدر خلقه للاحتمالات. والفن هو أكثر تلك الخيارات والاحتمالات اكتمالا من ناحية الحرية والجمال.

*** في " مقامات العشاق والتجار " لوحظ تخليك عن السرد الجميل، الذي ميز أعمالك السابقة، بحيث جاءت اقرب إلى الأدب السياسي والتقريري..؟**

رواية "مقامات العشاق والتجار"، كانت رواية غضب وقرف، وكتبت بأقصى حالات الانعزال والكآبة.. وكانت رواية فريدة من نوعها، إذ لم يكن قبلها ولا بعدها بسنوات من كتب مثلها في نقد الحالة الفلسطينية التي نشأت بعد اتفاق أوسلو. تناولت بنية الفساد وانتقال الثائر ليكون موظفا وتاجرا، وانتقال مركز القرار وجدل الرؤى والانفجاريات الاجتماعية والظواهر السلبية، وقد تصديت فيها للانحرافات وبما يمليه علي دوري كمثقف من نقد للسلطة، وهو نقد من الداخل، نقد المنتمي وليس الحاقد أو المفارق.

*** أيضا " أخر القرن" لم تكن بعيدة عن أجواء الغضب الداخلي الواضح بحيث إنها كانت " رواية تحذير بلا سرد، رواية**

تداعيات، رواية هذيان، رواية تمزق وتمزيق " حسب تعبير احد النقاد الفلسطينيين..؟

رواية "آخر القرن" كانت امتداداً لرواية (مقامات العشاق والتجار)، فقد صدرت بعدها بسنتين، وهي رواية تمزيق وتمزق، ورواية فضائح بكل معنى الكلمة، وهي أيضاً رواية لم يكن لها ما يشابهها في الداخل الفلسطيني. هي رواية غاضبة ومحتقنة وربما كانت أكثر جرأة من سابقتها في إبراز مواطن الخلل التي نراها في مجتمعنا، هي صرخة عالية ضد الخراب ومظاهر الفساد وغياب مقولة سياسية وحضارية وخطاب واضح للسلطة، وإبراز تغير أولويات السلطة والمجتمع والجدل حول ما كان الجدل حوله محرما. وأشعر أنني قد قلت ما كان يجب أن نصارح به أنفسنا، وأعتقد أنني كشفت الكثير من المستور الذي أخذ يظهر في ما بعد، والآن وبعد عشر سنوات من صدورها اشعر أنني قمت بعمل صائب.

* **بناء على إجابتك، ما هو دور المثقف برأيك.. كيف ترى طبيعة علاقته مع السلطة السياسية..؟**

دور المثقف برأيي هو أن يشتبك مع السلطات جميعاً، وعلى رأسها السلطة السياسية حتى يبقيها غير مستقرة إلى أفعالها أو ممارساتها. على المثقف أنْ يطالب السلطات جميعاً بأن توفر الأمن والغذاء والكساء والمسكن والحرية للناس. أنا في هذا الشأن واقعي جداً. على السلطات جميعاً أن توفر الأمن أولاً والحرية ولاً والطعام أولا. المثقف صاحب عين مدققة وقلب كبير ولسان سليط.

* **هل لتلك الآراء علاقة بتوقفك عن الكتابة لمدة تزيد عن العشر سنوات..؟**

لا، توقفت عن الكتابة عشر سنوات لأنني كنت أعمل "باليوميّة" في المطاعم والمزارع والمفاحم من أجل إعالة أسرتي.

*** في أعمالك اللاحقة اتكأت على التاريخ بشكل أكثر كثافة.. لماذا؟.. وما الذي يعنيه " هروب" روائي إلى التاريخ في هذه المرحلة..؟**

اعتقدت وما أزال أنَّ التاريخ يقدم إجابات، ويستلهم الأبطال ويخلقهم، واعتقدت وما أزال أنَّ التاريخ تراجيدياً تستعاد دائماً. التاريخ هو الحبكة التي شكلتنا. ذهابي إلى هناك نوع من تعريف الهوية.

*** أيضا التأكيد على الزمن والتأريخ في أعمالك يطرح سؤالا حول العلاقة بين الروائي والمؤرخ والحد الفاصل بينهما..؟**

أنا لست مؤرخاً إطلاقا، رواياتي تتعلق بالاحتمالات والأسئلة، رواياتي تقع في الساحة الخلفية للتاريخ والفلسفة، التاريخ في رواياتي هو "سبب للرواية" وليس الرواية ذاتها. قبل أنْ أكتب، أدقق في الحالة التاريخية جيداً وأتابعها جيداً ولكنها في نهاية الأمر لا تعني لي شيئاً سوى أنها بداية أو نقطة الانطلاق.

*** يلعب المكان.. أيضا، دورا ملحوظا في معظم أعمالك الروائية.. هل لأنها فلسطين..؟**

فلسطين بلد متعدد وجهات النظر، بلد الاحتمالات، بلد الحبكات الكبرى. أنا شخصياً، أُريد أنْ أصنع حبكتي الخاصة المنسجمة مع عقائدي التي أؤمن بها. فلسطين للآخرين ليست فلسطين التي اعرفها، ولهذا، أنا شخصياً من أكثر من كتبوا عن المكان، ليس بحثاً عن الجمالي فيه وإنما عن العقائدي.

*** طرحت في رواية " عكا والملوك" موضوع الحوار مع الآخر " الغرب ".. والسؤال كيف ترى هذه العلاقة وهذا الحوار من وجهة نظر المثقف والروائي..؟**

العلاقة مع الغرب كانت وما تزال علاقة مبنية على الشك والتوجس والغيرة والحسد والاشتباك. حضارتنا كلها تلخص علاقتنا بالآخر المعتدي والمحتل والبغيض والباغض والحاسد.

* **استوقفني في ذات السياق الإهداء الذي قدمته في رواية "بلاد البحر"، إلى من أسميتهم "المتحضرون الكذبة"؟..**

أنا لا أؤمن بالغرب، لا بفنِّه ولا بفلسفته ولا بأخلاقه، وهو مجبر على تسويق منتجه العلمي من أجل الربح والسيطرة ولهذا من حقي استعماله، أما عدا ذلك، فالغرب عدائي واستعلائي وكاذب.

* **وكيف ترى العلاقة مع (الآخر) اليهودي من خلال ما ذهبت إليه في روايتك "مقامات العشاق والتجار"، ومن خلال تناول اليهودي في الأدب الفلسطيني..؟**

الإسرائيلي مستعمر مثله مثل غيره، ولا يمكنني استدراج الإنساني فيه أو الاتفاق معه كما فعل أدباء وشعراء فلسطينيون.

* **في هذا الإطار كيف تنظر إلى الروايات الصهيونية الجديدة التي تحاول إظهار الرغبة في التعايش مع العرب، وأين يمكن تصنيفها..؟**

كلام زائد على الحاجة.

* **ولماذا أطلقت على الرواية اسم " المنامة.. "هاأنذا أكتب منامتي في حنين وعذاب"، لتكون " المنامة الثالثة في تاريخ الأدب العربي "..؟**

رأيت هذا الشكل مناسباً لمضمون الرواية. وبصدق شكل الرواية عندي يتم اختياره بطريقة لا أعيها. أقول هذا بصدق كامل وتام.

*** تعتمد في رواياتك كثيراً على الحوارات الداخلية للشخصيات وسبر نوازع النفس البشرية بشفافية وعمق..؟**

أؤمن بأن التداعي الحر هو حوار حقيقي جداً، أؤمن بأن شخصية الإنسان أعمق مما تظهر، وأعمق مما يعبر عنها عادة. كل شخصية هي طبقات من الشخصيات المتوارية والمضمرة.

*** عندما تقوم بكتابة رواية.. هل تكون " الحكاية " بكامل شخصياتها وتفاصيلها حاضرة في ذهنك..؟**

لا، لا أُخطط لرواياتي أبداً. الصفحة الأولى هي العذاب حقاً، ثم تلد الحكاية بعدها.

*** هل تستطيع القول بان أحمد رفيق عوض ينتمي للرواية الفلسطينية الجديدة أو للرواية العربية الجديدة مثلاً..؟**

أعتقد ذلك. أنا كتبت روايات متعددة الأساليب، الكلاسيكية والأحداث، وغامرت بالشكل والمضمون معاً.

*** بالتالي ما هي سمات هذه الرواية العربية الجديدة..؟**

سمات هذا التيار الجديد هو التهجين اللغوي والجرأة العالية في السياسية والدين والجنس، وغياب الأبطال وموت الأفكار وتذويت المواضيع وانخفاض النبرة، والاهتمام بالهوامش والمهموس والمبتذل والمرفوض والملفوظ وتفجير السقوف وتجاوزها وتغيير المسرود.

*** يلاحظ اتجاه في الرواية العربية الجديدة نحو الغوص في المحرمات الجنس والسياسة.. هل تراها موضة أم ضرورة..؟**

الحديث في المحرم هي أزمة حضارية حقيقية، خاصة إذا رافقها الطيش والجهل وعدم وجود البدائل.

* **بعيدا عن الرواية والأدب فأنت إعلامي ومفكر سياسي بارز.. والسؤال كيف انعكس الإعلامي على الإبداعي.. وكيف تم تسخير الفكر السياسي في الأدب دون أن يخل بالمستوى الفني..؟**

أنا مدمن على السياسة وهو ما يظهر فيما اكتب كثيراً.

* **سؤال أخير، هل أنت متشائم في الحياة إلى الحد الذي تذهب إليه في أعمالك..؟**

أنا لست متشائماً أبداً، أنا أؤمن بالله العلي العظيم، الذي جعل القنوط حراماً وظلماً.